اللغة والحياة

بقلم الدكتور عبد الحميد يونس

ليس عجيباً ان تحتدم المناقشة في هذه الأيام حول الأدب بين المحافظين والمجددين . فان المتتبع لتاريخ الأدب بعامة ، وتاريخ نهضتنا العربية بخاصة ، يلاحظ هذه الفورة في كل دورة من دورات الأجيال . والمحافظون اليوم ، او الذين يُنظر اليهم كذلك ، كانوا منذ ربع قرن مجددين ، وخاضوا معركة حامية مع الجيل الذي سبقهم . وانتصروا في هذه المعركة ؛ ولم يكن انتصارهم في الواقع لعبقرياتهم الفنية او الأدبية ، ولكنه كان انتصاراً حيوياً طبيعياً أعلنته الحياة نفسها باعتبارهم جيلاً جديداً ، ووقعته بأسمائهم وأذاعته على ألسنتهم وأسنة اقلامهم . ونحن نعترف بان هؤلاء الأدباء المحافظين اليوم ، والمجددين بالأمس ، لم يحققوا مطالب النهضة الأدبية كلها . ولا يقدح ذلك في جهدهم ، فان الحياة التي احتفلت بانتصارهم منذ ربع قرن ، انما فعلت ذلك لأنها نجحت في بعض تجاريبها ، وهي دائبة التجربة ، دائبة التنقيح ، دائبة النسخ ، دائبة السير الى الأمام .

وكل مثقف في مصر والشرق العربي ، يسلم باننا قد قطعنا أشواطاً فساحاً في إيقاظ الرأي العام وإعداده لحكومة نفسه بنفسه في غير غفلة او جهل . وكل مثقف في مصر والعالم العربي يرى معنا اننا اقتربنا او كدنا نقترب من الديموقراطية السياسية المنشودة . واننا حطمنا كثيراً من الأصنام ، وأزلنا كثيراً من العقبات ، وبددنا كثيراً من الخرافات والترهات ، واننا نجاهد في سبيل التقريب بين الطبقات على أساس اقتصادي رشيد . ولكن احداً من هؤلاء المثقفين لم يفكر طويلاً في ان ما حققناه وما نحن بسبيل تحقيقه في الميدان الاجتماعي والاقتصادي ، يجب ان يرتكز اولاً وقبل كل شيء على اساس من الديموقراطية الوجدانية . وان هذه الديموقراطية الوجدانية يخلقها الفن الجميل بصفة عامة والفن الأدبي بصفة خاصة .

« إن عالمنا العربي مصاب بما اسميه بـ « الازمة اللغوية »، وهي ازمة أخطر من كل ازمة اجتماعية، لأن تأثيرها ينسحب على المجتمع كله، ولأن جذورها عميقة متشابكة، وهي تعمل عملها المستمر في سلوك الافراد واتجاههم نحو مجتمعهم الخاص ومجتمعهم العام، وهي مقوّم من أهم مقومات الشخصية الفردية والشخصية الجماعية على السواء . »

ونحن إذا قلنا « الفن الأدبي بصفة خاصة » فذلك لأنه يستوعب الجهد الفني للعالم العربي منذ عهد جد بعيد . ولما كانت اللغة هي وسيلة هذا الفن الأدبي ، فقد اصبح لزاماً علينا ان ننظر في موقفنا منها والى اي مدى نستطيع ان نحقق بها تلك الديموقراطية الوجدانية التي أشرنا اليها ؛ والتي عجز أدباء الجيل الماضي عن تحقيقها .

والواقع ان عالمنا العربي مصاب بما أسميه في غير تجوّز او احتياط بـ « الأزمة اللغوية » ، وهي أزمة اخطر من كل أزمة اجتماعية . لأن تأثيرها ينسحب على المجتمع كله ، ولأن جذورها عميقة متشابكة ، وهي تعمل عملها المستمر في سلوك الأفراد وفي موقف كل منهم حيال الآخرين وفي اتجاهه نحو مجتمعه الخاص ومجتمعه العام ، وهي مقوّم من أهم مقومات الشخصية الفردية والشخصية الجماعية على السواء . وسوف يهولنا ان نعلم ، نحن معاشر المثقفين ، اننا مصابون بما يعرفه اصحاب التربية بـ « الازدواج اللغوي » اي اننا مكلفون باصطناع لغتين مختلفتين ، نعيش بلغة ونتفنن بلغة اخرى ، نفكر بلغة ونعرض افكارنا بلغة اخرى . ومهما قيل عن اتحاد الأصل في هاتين اللغتين او عن وجوه التشابه بين هاتين اللغتين ، فان الواضح انهما لغتان متمايزتان ، لكل منهما اصول وقواعد ولكل منهما ادب وتراث . وكل ما في الأمر ان الرسمية منهما استطاعت ان تحظى باعتراف المثقفين لهذا السبب او ذاك وسجلت ادبها ودونت قواعدها . وان الأخرى تُركت للتفاعل مع الحياة ولم يسجل من ادبها وقواعدها إلا النزر اليسير . وهكذا اتصلت الأولى بافكار المفكرين وأدب الأدباء الرسميين ، واتصلت الثانية بأدب العاديين او الذين يُسمون بالعوام ، وصورت افكارهم ومثلهم واعتمدت على الذاكرة الشعبية اعتمادها على الصوت الحسّي الملفوظ . وهذا الازدواج اللغوي

يستتبع في اكثر الأحيان ازدواجاً في الشخصية كما أنه يجعل كل واحد منا أقرب ما يكون الى الأجنبي النازح من بلد آخر ليقيم معنا ، فهو يعيش في مجتمعه الخاص بلغة ، ويعيش في مجتمعه العام الجديد بلغة اخرى . وأساتذة اللغة العربية يعلمون من غير شك ما يقاسيه طلابهم في الكتابة الانشائية ، فان قصورهم عن التعبير الكامل عن افكارهم ومشاعرهم يرجع الى أنهم يتمثلون هذه الأفكار وتلك المشاعر بلغتهم الحية ثم يترجمونها بعد ذلك الى اللغة التي فرض عليهم ان يكتبوا بها ، وتظل هذه الترجمة تلازمهم مهما تعلموا . فاذا رأيت لغتهم الرسمية صحيحة مستقيمة البناء ، فاعلم ان الترجمة مضمرة وان كانت موجودة . واذا كنت في شك مما أقول فما عليك إلا ان تلاحظ نفسك في الاقبال على حديث مذاع باللغة الرسمية وحديث آخر بلغتك الحية . او في الاقبال على قصيدة فصيحة وموال عامي بلغتك المحلية . فاذا اضفنا الى هذا كله ان اللغة الرسمية تؤلف من اصحابها المتعلمين طبقة اجتماعية قائمة برأسها لها وعيها الخاص المستقل ، أدركت مدى الخطر النفسي والاجتماعي في هذا الازدواج اللغوي .

والشخصية الفردية والشخصية الجماعية لا يمكن ان ينسلخا عن ماضيهما ، وهذا الماضي هو الذي يكون إطار التجربة الشعورية ، وهو وسيلة هذه التجربة الى الظهور والتفنن . وقد ادى الازدواج اللغوي — كما قلنا — الى وجود تراثين متمايزين . واستتبع ذلك تبلبلاً في تصوير المشاعر والتجاريب ، ولعل ما نشكو منه ، وهو بُعد الأدب عن الحياة ، إنما يرجع الى هذا التبلبل . واستقر في اذهان المتعلمين انفسهم ان التفنن الادبي لا يقوم الا باللغة الرسمية وحدها ، فآثروها على لغة الحياة اليومية واستمدوا إطار تجاريبهم الشعورية من تراثها وحده ، وهو تراث يقع معظمه في القرون الوسطى . ومنهم من وقف بهذا التراث عند فترة بعينها في اوله وآخره ، وكأنما ضرب على الوحدات الجماعية التي تؤلف العالم العربي ، ان تبدأ وتنتهي حيث يشاء اولئك المثقفون . وقد نسوا ان اللغة ، وهي العامل الاساسي في إطار التجربة الادبية ، ظاهرة اجتماعية لا يُتعسف في تحديدها . وليست ، ولا يمكن ان تكون ، ظاهرة عقلية تقاس بمعايير المنطق الصوري وتطبق عليها قواعده وضوابطه . وأغرب من هذا كله ذلك الشغف المسرف بتتبع الخطأ والصواب في اللغة ، فجُعلت بذلك مفرداتها وتراكيبها كمفردات المسائل الرياضية وتراكيبها سواء بسواء . وإن كان لهذا الصنيع من دلالة كبرى ، فهذه الدلالة هي ان اللغة الادبية الرسمية في واد ، والحياة الاجتماعية الممتدة في الزمان والمكان في واد آخر . ولا يزال اساتذة اللغة العربية عندنا ، للأسف الشديد ، يحتكمون في بيان هذا الخطأ وذلك الصواب الى عصر سابق او الى عصور سابقة . فمنهم من يقف بهذا العصر عند الجاهلية ، ومنهم من يقف به عند صدر الاسلام ، ومنهم من يمتد به الى نهاية الدولة العباسية . وهذه النظرة « السلفية » لا يمكن ان تكون معياراً لغوياً صحيحاً ، لأنها تقف بالتطور اللغوي عند نقطة واحدة لا تتعداها . ولم يقل احد ، ولا يمكن ان يقول ، إن العالم العربي قد انقطع تاريخه بسقوط دولة وقيام اخرى . ولم يقف اساتذة اللغة عند هذا الحد ولم يكتفوا بذلك المعيار التاريخي ، بل اضافوا اليه معياراً آخر هو المعيار الجغرافي وزاوجوا بين المعيارين ، واحتكموا في اللغة الى جزء معين من العالم العربي . وأيا كان هذا الجزء ، وأيا كانت صلته بالأرومة العربية ، فانه لا يمكن ان يكون مقياساً لغوياً مضبوطاً في جميع العصور وجميع البيئات .

تراث ادبنا الرسمي إذن بعيد عن حياتنا الحاضرة البعد كله ، وهو تراث طبقة اجتماعية لها رسومها وتقاليدها . ويقع اغلبه في القرون الوسطى ويتصل جانب كبير منه « بالتطفل الاجتماعي » . فقد كان الادباء ، وفيهم من يُسمّون بالفحول ، طائفة تدعو الى السلطان وترفه عنه ، تمدح وتهجو وترثي وتحتفل بالمخاطب او المخاطبين وتصدر ما تصدر من المنظوم والمنثور ، طلباً للجوائز والصلات . وهذا التراث هو الذي نكلف طلابنا ان يدرسوه وننتخب لهم مثله ونماذجه ليحفظوها ونجعله الشواهد التي نحتكم اليها في صحة العبارة وارتفاع الاسلوب ، والوسيلة الى استخلاص الاحكام في التفنن والنقد جميعاً ، فيقوّي ذلك من الازدواج اللغوي عند المتعلمين ويؤلف الاطار الذي يصبون فيه تجاريبهم الشعورية إذا تهيأوا للتفنن الادبي ، وهكذا تتقمصهم شخصيات اخرى غير شخصياتهم تعيش في بقعة اخرى وفي عصر آخر ، وتتفاهم مع الشخصيات المتعلمة على غرارها والتي تؤلف طبقة اجتماعية متبلورة . وليس في هذا القول غلوّ فان الاطار لا بدّ ان يؤثر في المضمون . ولهذا كانت العلة الحقيقية في الأدب كامنة في وسيلته وهي اللغة . وكان صنيع الادباء المجددين علاجاً جزئياً او ظاهرياً للعلة . وكانت الواقعية

المنشودة ، سواء أكانت واقعية وجدانية او خارجية ، بعيدة التحقيق . وهي لا يمكن ان تتحقق الا إذا استبدلنا هذا التراث بتراث آخر اوثق اتصالاً بالحياة المتطورة ابداً ، او وسعنا من مجاله بحيث يشمل التراث غير الرسمي ايضاً .

ونحن عندما اصطنعنا الاساليب الديموقراطية في الحكم ، طالبنا وألححنا في المطالبة بتعليم سواد الأمة ، ووضعنا لهذا التعليم الخطط والاقتراحات ، وشرعنا نعمل ما وسعنا على محو الأمية ، وأنشأنا مدارس الالزام ومدارس التعليم العام. وكان منا من يجعل هذا التعليم حقاً ، ومنا من يجعله واجباً ، ومنا من يقصره على سن معينة ، ومنا من يبيحه للجميع . وكان ذلك اعترافاً صريحاً بان القراءة والكتابة امتياز قصر على فئة ويجب ان يُعمم على الجميع . ولكننا أغفلنا في الوقت نفسه صلة اللغة بالحياة ، فلم نفعل شيئاً لتطويعها لمقتضيات هذه الديموقراطية . ونشأ عن ذلك ازدياد المنسلخين عن المجتمع . واقصى ما بذلناه في الميدان اللغوي ، تطبيق بعض القواعد التربوية في تبسيط النحو والصرف والبلاغة وانتخاب الامثلة والشواهد . وظلت اللغة الرسمية على حالها تُدرس على انها ظاهرة عقلية فحسب ، والنابغة النابغة فيها هو أقدر الطلاب على التبرير والاحتجاج . وتطورت منظماتنا التعليمية ، المهنية والنظرية وأدخلنا المنهج الجامعي ، بيد ان معاهد اللغة العربية بقيت سلفية محافظة تستشهد بآثار الماضين ، وتتمثل بقعة واحدة دون سائر البقاع ، وتقف عند عصر معين دون سائر العصور ، وترى الادب مهنة كغيره من المهن له قواعده الحرفية التي تكتسب بالمرانة والحذق فحسب .

وكان انشاء المجمع اللغوي اعترافاً آخر بقصور اللغة الرسمية عن مجاراة الحياة ، ولكن تصور المجمعيين لهذه اللغة لم يكن خيراً من تصور المعلمين ، فقد اعتقدوا ان اللغة جهد عادي ينفع فيه الاقتراح والتقنين فذهبوا — سامحهم الله — مذاهب شتى في الوضع والاصطلاح وعكفوا على التراث الرسمي القديم يفتشون فيه وينقبون عن الالفاظ المهجورة فبعثوها من رقدتها وحملوها ما لم تكن تحمل من الدلالات. وشغل الاذكياء منهم الناس بما وضعوه قياساً على غيره من المهجور وأذاعوا هذا كله في الناس وطالبوهم باستعماله، وقالت الحياة لهم انكم في واد وأنا في واد آخر ، واتخذت من صنيعهم مادة للفكاهة والترويح. فليست اللغات في حاجة الى المجامع التي تشرع لها ، وهذه الامم الناطقة بالانكليزية لم تنشيء ولم تفكر في انشاء مجمع لغوي . واذا كنا قبسنا النظام المجمعي عن فرنسا ، فان هذا المجمع الفرنسي لا يشرّع ولا يقترح ولا يضع ، ولكنه يتتبع الاستعمال يسجله ويذيعه ويتركه للحياة تأخذ منه وتدع ما تشاء .

واذا فكرنا معاً في المثال اللغوي الذي يجب ان نحتذيه ، والذي يجب ان يكون وثيق الاتصال بالحياة، طالعتنا الفكرة الارستقراطية ، أو فكرة المجتمع الراقي التي دعا اليها بعض الكاتبين الاوربيين أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن. بيد أن هذه الفكرة لا ترتكز في عالمنا العربي على اساس اجتماعي وطيد . فالملاحظ في الطبقة الارستقراطية انها ، وبخاصة في مصر لم تكن عربية الاصل ، عربية اللغة. ولكنها كانت تركية تشعر باستعلائها على الوطنيين . ويحتفل افرادها بالتراث التركي وان شاءوا التوسع ناحية الشرق، احتفلوا بالتراث الفارسي، وقد رأينا المتفننين منهم يباهون اللغتين في بواكير نهضتنا الادبية. ولما امتدت قبضة اوربا على الشرق العربي لم تكتفىء هذه الطبقة الارستقراطية الى اللغة العربية، ولكنها آثرت اللغات الاوربية الفرنسية والالمانية والانكليزية، تبعاً لصلات هذه الامم بالسلطان. ومكاتباتنا الرسمية تدل بجلاء على هذا التطور فقد كانت الصيغ الفارسية التركية شائعة اول الامر ، ثم حلت محلها الصيغ الانكليزية في مصر، والفرنسية في سورية ولبنان . بيد أن الوعي القومي تغلب على هذا كله ودعم اللغة العربية . ولكنه فضل اللغة الرسمية على سواها وأعان على خلق طبقة وسطى بين الطبقة الاجنبية الحاكمة والطبقة الشعبية المحكومة . ومن هنا زالت المثالية اللغوية عن المجتمع الراقي وأصبحنا مطالبين بالبحث عنها في بيئة اجتماعية اخرى .

ليست عندنا اذن « لغة الملك » كما يقول الانكليز، وليست عندنا اذن لغة النبلاء ، التي تدفع الناس الى محاكاتها دفعاً وهم ينزعون الى التطور أو ينشدون التقدم . وحسبنا أن نلتفت الى العنصر الديموقراطي في اللغة ، فان اللغة باعتبارها ظاهرة اجتماعية تنقسم بانقسام المجتمع الى طبقات . وللطبقات الدنيا لغاتها ولها تفننها ودأبها وقد كان النزوع نحو الديموقراطية في اوربا ابان القرن التاسع عشر باعثاً على التأمل في اللغة ، فصرح بعض الدارسين بان أساس الصواب والخطأ فيها، إنما هو السهولة، السهولة في القول ، السهولة في التلقي ، بحيث لا تصبح مقصورة على فئة قليلة من الناس . ولكننا لا نستطيع أن نأخذ بهذا

الاساس وحده لان السهولة ليست السمة الاساسية في اللغة ، وإن كانت مطلوبة في المجتمعات الديموقراطية .

وقد شعر رواد هذه النهضة الادبية بخطر الازمة اللغوية ، واعترف قاسم أمين بانه كلما أحس إحساساً قوياً رأى بعد طول الجهد وكثرة الكلام أنه قال شيئاً عادياً أقل مما كان ينتظر ، وأن أحسن ما في نفسه بقي فيها مختفياً . وطالب بالتحلل من الاعراب ، واعتبره العقبة الكؤود في سبيل التعبير الفني . ومال غيره ، مسايرة للوعي الوطني ، إلى إيثار اللغة العامية وحاول أن يكتب بها فحاربه الرأي العام المتعلم ورده إلى اللغة الفصحى . وكان نصيب الادباء من هذه الازمة اللغوية أشد وأقوى ، وبخاصة في معالجة الدرامة والقصة ، فان السرد والتصوير والحوار جميعاً يجب ان تعالج بلغة حية نابضة بالشعور . وآثر بعضهم العامية في الحوار أول حياته وانتهى الأمر به إلى الفصحى . واتخذت الدرامة طريقين أحدهما فصيح والآخر عامي ، وحاول المرحوم المازني التخلص من المشكلة كلها بتتبع ما يُظن انه عامي من المفردات والتراكيب المستعملة على السنة الناس والعمل على رده إلى أصله العربي وزاوج بذلك بين مقتضيات الأدب الرسمي من ناحية ، ومقتضيات اللون المحلي في القصة من ناحية اخرى . أما تجربته في الدرامة فكانت مزاوجة بين الفصيح والعامي تبعاً لاختلاف الشخوص في السن والبيئة والطبقة . وتخلص غيره من عبء هذه الازمة بتقطيع الحوار تقطيعاً نفسياً يشيع فيه الوقف ويكثر الفصل ويقل الاسترسال مع المحافظة على الاعراب في بنية عباراته القصيرة . ولكن هذا كله لا يمكن ان يكون حلا كاملاً للازمة اللغوية ، لأن الازدواج لا يزال موجوداً . وقصارى التعليم ان يصل بين اصحابه وبين التراث الرسمي القديم ، ويباعد بينهم وبين الحياة المعبرة الموصولة .

واتخذت الصحافة لها طريقاً وسطاً ، فهي إنما تقوم بالذيوع والرواج ، فحافظت على القالب الرسمي ولكنها لم تتحرج من استعمال ما يطلق عليه المحافظون الحوشي والمبتذل ولم تأنف من التوسل بالعامي في كثير من الاحيان . ولم ترغب عن الدخيل الاجنبي اذا كان مفهوماً من قرائها وبخاصة المصطلحات الادارية والفنية التي لمّا تعرّب . وظهر في الميدان اللغوي الى جانب الصحافة عنصر جديد فعال ، قوّى من شأن العبارة الملفوظة ولم يحتفل بالمدون اطلاقاً وجعل لغته زاداً للمتعلمين وغير المتعلمين على السواء ، وهذا العنصر هو « الرداد » (كما أوثر أن أسمي الراديو) بيد ان القوامين على هذا العنصر لم يفطنوا الى خطره بعد ، وهم يتذبذبون بين لغات ولهجات ، يستعملون اللغة الرسمية في الاخبار وبعض الاحاديث ، ويستعملون اللهجات العامية مدنية وريفية وبدوية في الاحاديث الاخرى والتمثيليات . وبرز الى جانب هذا العنصر ، عنصر آخر اعتمد على الملفوظ ايضا وزاوج بينه وبين الصورة المتحركة . والمشرفون عليه يؤثرون العامي لاغراض تتصل بالتجارة ولا تتصل بالافادة والتوجيه ، وقلما يستعملون الرسمي حتى ولو امتد نشاطهم الى العالم العربي كله ، ولسنا نشك في أن هذه الوسائط قد غيرت طريق التطور اللغوي وستكون لها آثار حاسمة في علاج الازمة اللغوية .

وها أنت ترى ان الجيل الماضي من الادباء احس الازمة اللغوية وحاول ان يعالجها ولكنه لم يوفق ، وكان السبب في فشله ، اعتماده اولاً واخيراً على تراث اللغة الرسمية فحسب وتشبثه بقوالب هذا التراث مما وعّر طريقه في اصطناع الفنون الادبية الجماعية كالدرامة والقصة . وقد صح عندك ان الحلول الجزئية والظاهرية لا تشفي المجتمع من هذه المحنة . والافراد القلائل مهما كانوا ومهما كانت عبقرياتهم ومهما بلغت أقدارهم في المجتمع ، لا يستطيعون أن يفرضوا على هذا المجتمع منهجاً لغوياً بعينه . فاذا أضفت الى هذا كله اتساع التعليم وعدم اقتصاره على المدارس وقيام وسائط اخرى بالافادة والتفنن كالرداد والسينما ، أدركت معي ان الحياة جادة في علاجها والقضاء عليها ، وانها تقوم بمختلف التجاريب في هذا السبيل ، وان ما يظن انه فشل وقصور ، سيصل بها في النهاية الى التوفيق الكامل في محو الازدواج اللغوي وما يستتبعه من آثار في سلوك الافراد والجماعات .

القاهرة — عبد الحميد يونس

صدر حديثاً

الجزء الاول من سلسلة

قصص للشباب والطلاب

مدينة التماثيل

بقلم الاستاذ محمد المجذوب

الثمن ٦٠ ق.ل — دار العلم للملايين